– «يقول باسل: عندما تزيل الكريم وتلمس الوجه الضاحك تصاب برعشة جنسية لذيذة» هذا القول أيضا، لا يمكن أن يصدر عن «باسل» في حدود«الروائية»، وإنما يصدر عن الكاتبة، التي ترسم الشخصية، وتنسى إمكاناتها الفعلية. وتنسحب هذه الحاكمة أيضا على «باسل» حينما يقول: «هؤلاء لا يعرفون الثورة الحقيقية، الثوار الحقيقيون لا يحملون الكتب، بل المدافع، والخناجر. الخنجر له مفعول مضمون. تذكروا هذا القول جيدا» (ص ١٦٢). لا أعتقد أن هذا «الطفل الضاحك» يملك هذه الحكمة، وإذا اقترب منها، فانه بالتأكيد يعبر عنها بشكل اخر. إن تداخل قول الكاتبة وقول شخصياتها لا يقتصر على هذه الشخصية أو تلك، إنما ينسحب على كل الشخصيات تقريبا. لنستمع إلى «عادل»:

– «هل لقحنا النهر المقدس ولم نلد؟ غوصي يا بلدي في الأوحال. ولتطف على السطح آلاف الطحالب. ولتقل على الوطن السلام. ولتقل على الارض السلام» (ص ٧٥). هذا القول لا يعبر عن الشخصية في سماتها الروائية العامة، لذلك فإنه يقترب من قول «أسامة»: «وغوصي يا بلدي في الأوحال. وعان يا شعب مرارة العين البصيرة واليد القصيرة. واليد تنزف. والدار الكبيرة يعلوها الغبار. وأمجاد العائلة تنهار وتنفضح الكذبة.فنحن في الهم سواء» (ص ٧).

أعود هنا وأقول من جديد: إن قول الرواية الحقيقي هو قول علاقاتها الفنية، وعندما ينكسر هذا القول، ويختلط بقول آخر، خارجي، فإنه يكسر معه العلاقة الفنية. لهذا، كان من الطبيعي، أن يمتد تدخل سحر في نصها الروائي إلى حدود الفعل الروائي ذاته، حيث يتطور الفعل في مستوى لم يكن متضمنا فيه، أي يبتعد الفعل عن امكاناته الفعلية ويدخل في امكانية مجردة، أخلاقية الدلالة غالبا، فرضتها الكاتبة، التي تدفع بالفعل الروائي وفقا لرغباتها الذاتية، ومعاييرها الاخلاقية. يتضح هذا التدخل، ويبرهن على ذاته، في رسم شخصية «شحادة» وحركتها. لقد دفعت الكاتبة هذه الشخصية إلى ضفاف السخرية، وجعلت منها «كاريكاتورا»، كي تصبح وفقا لإرادتها شخصية – برهان تدلل على «بطر الأجراء» و«رخاء العيش» في زمن الاحتلال.

تتراجع موضوعية النص الروائي في صنّار سحر خليفة، حينما ينتقل النص من المستوى المشخص إلى المستوى المجرد، ومن مستوى الممكن إلى مستوى الواجب، ومن الموضوعي إلى الذاتي، أي عندما يحل ما هو مطلوب ايديولوجيا مكان ما هو روائي، والروائي يختلف عن الايديولوجي، ويتجلى ذلك في نقطتين:

(أ) تتمثل الأولى في اللقاء المستحيل روائيا (موضوعيا) بين «أسامة» و«زهدي» فوق أرض معركة واحدة، تخضع في زمانها لمنطق الصدفة، علما بأن هذه المعركة المعبرة عن موقفين متمايزين من قضية الوطن، لا تصبح معركة واحدة، حسب منطق الرواية ذاتها، إلا عندما تبقى «معركتين»، لأن معركة الوطن لا يحددها وعي واحد، بل تتعامل معها أشكال وعي مختلفة في أصولها ودلالاتها، وهذه الاشكال تجعل المعركة «معارك»، وفي هذه «المعارك» يتداخل الصراع الطبقي مع الصراع الوطني، ويتقابل الوعي الذاتي مع الوعي الموضوعي. يعيش «أسامة»، الرومانسي الغريب عن الواقع، معركته في حدود وعيه، ويعيش